سورةُ الغاشِيةِ

الجزء الثاني

من الآية (17) إلى الآية (26)

المعنى الإجمالي الآية (1) إلى الآية (26) المعنى الإجمالي:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُخاطِبًا نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال له: هل بلَغَك -يا محمَّدُ- خَبَرُ القيامةِ الَّتي تَغشى النَّاسَ بأهوالِها وشَدائِدِها؟

ثمَّ فصَّل الله تعالى أحوالَ النَّاسِ في ذلك اليومِ، فقال: في ذلك اليومِ تكونُ وُجوهٌ ذَليلةً، يَعمَلُ أصحابُها أعمالًا شاقَّةً مُرهِقةً، يَدخُلونَ نارًا شَديدةَ الحرارةِ، ويُسقَونَ مِن شَرابِ عَينٍ في غايةِ الحَرارةِ، ليس لهم طَعامٌ إلَّا شَجَرٌ يابِسٌ ذو شَوكٍ، لا يُسمِنُ هذا الضَّريعُ آكِلِيه، ولا يَدفَعُ عنهم شيئًا مِن ألَمِ الجُوعِ!

يقولُ تعالى مبيِّنًا حالَ أهلِ الجنَّةِ مِن المؤمنينَ وما هم فيه مِن النَّعيمِ: وتكونُ وُجوهُ المؤمِنينَ يَومَ القيامةِ عليها أثَرُ النِّعمةِ؛ مِنَ البَهجةِ والسُّرورِ والنَّضرةِ، راضِينَ عَمَّا عَمِلوه في الدُّنيا مِن أعمالٍ صالحةٍ، حينَ وَجَدوا ثوابَها العَظيمَ في الآخِرةِ، وهم في جَنَّةٍ مُرتَفِعةٍ، لا يَسمَعونَ فيها ما لا فائِدةَ فيه مِن الكَلامِ.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى بعضَ صِفاتِ الجنَّةِ، فيقولُ: في تلك الجَنَّةِ العاليةِ عَينٌ جاريةٌ مِن غَيرِ أُخدودٍ، وفي تلك الجَنَّةِ أَسِرَّةٌ عاليةٌ مُرتَفِعةٌ، وأكوابٌ مَوضوعةٌ بيْن أيديهم، ووَسائِدُ مُرَتَّبةٌ ومَصفوفةٌ بَعضُها بجانبِ بَعضٍ، وفُرُشٌ فاخِرةٌ مُنتَشِرةٌ!

قال ابن عاشور: وقد قُوبِلَت صِفاتُ وُجوهِ أهلِ النَّارِ بصِفاتِ وُجوهِ أهلِ الجنَّةِ؛ فقُوبِلَت صِفاتُ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ [الغاشية: 2-3] ، بصِفاتِ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ [الغاشية: 8-9] ، وقُوبِلَ قولُه: تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً [الغاشية: 4] بقولِه: فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ [الغاشية: 10] ، وقُوبِلَ: تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ [الغاشية: 5] بقولِه: فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ [الغاشية: 12] ، وقُوبِلَ شَقاءُ عَيشِ أهلِ النَّارِ الَّذي أفادَه قولُه: لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ * لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ [الغاشية: 6-7] ، بمَقاعِدِ أهلِ الجنَّةِ المشعِرةِ بتَرَفِ العَيشِ مِن شَرابٍ ومَتاعٍ.

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20) فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ (21) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ (22) إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (23) فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ (24) إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم (26).

يقولُ تعالى آمِرًا عِبادَه بالنَّظرِ في مخلوقاتِه الدَّالَّةِ على قُدرتِه وعَظَمتِه: أفلَا يَنظُرُ النَّاسُ إلى الإبِلِ مُتفكِّرِينَ في كيفيَّةِ خَلْقِها على هذا النَّحوِ العَجيبِ؟ وإلى السَّماءِ كيف رُفِعَت هذا الارتِفاعَ العَظيمَ؟ وإلى الجِبالِ كيف أُقيمَت على هذه الهيئةِ الباهرةِ؟ وإلى الأرضِ كيف بَسَطَها اللهُ؛ لتَستَقِرَّ عليه المخلوقاتُ؟

يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بدَوامِ التَّذكيرِ، فيقولُ: فذَكِّرِ النَّاسَ -يا محمَّدُ- بآياتِ اللهِ تعالى، وعِظْهُم بها؛ فما أرسَلْتُك إليهم إلَّا لتَذكيرِهم، ولَسْتَ مُتسَلِّطًا على النَّاسِ ولا قاهِرًا لهم؛ فتُكرِهَهم على الإيمانِ باللهِ وطاعتِه، لكِنْ مَن أعرَضَ عن الحَقِّ وكَفَر بعدَ تذكيرِه بآياتِ اللهِ تعالى، فيُعَذِّبُه اللهُ في الآخِرةِ عذابَ النَّارِ الأكبَرَ.

ثمَّ يختمُ الله تعالى السُّورةَ الكريمةَ فيقولُ: إنَّ إلينا مَرجِعَهم ومَصيرَهم بعْدَ مَوتِهم، ثمَّ إنَّ علينا حِسابَهم يومَ القيامةِ على أعمالِهم، وسنُجازيهم بها.

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ ﴿17﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال ابن حيان: لما ذكَر تعالى أمرَ القيامةِ، وانقسامَ أهلِها إلى أشقياءَ وسعداءَ، وعُلِم أنَّه لا سبيلَ إلى إثباتِ ذلك إلَّا بواسطةِ الخالقِ الحكيمِ؛ أتبَع ذلك بذكرِه هذه الدلائلِ، وذِكرِ ما العربُ مشاهدوه وملابسوه دائمًا.

فَيا عَجَباً كَيفَ يُعصى الإِلَهُ أَم كَيفَ يَجحَدُهُ الجاحِدُ وَفي كُلِّ شَيءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلى أَنَّهُ واحِدُ

لما سُئل أعرابي عن دليل وجود الله، فقال : البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، وسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا يدل ذلك على اللطيف الخبير

إن ربنا -Y- يدعونا إلى النظر في مخلوقاته والتفكر في خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة، فإنه امتدح أقواما فقال عنهم : {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ }[آل عمران:191]

توجيهُ الأنظارِ إلى تلك المذكوراتِ الأربَعةِ؛ لِما فيها مِن عَظيمِ الدَّلائِلِ على القُدرةِ وعلى البَعْثِ، ثمَّ الإقرارُ لله تعالى بالوَحدانيَّةِ والأُلوهيَّةِ؛ نَتيجةً لإثباتِ رُبوبيَّتِه تعالى لجَميعِ خَلْقِه. تتمة أضواء البيان

النَّظرِ في دَلائلِ الوَحدانيَّةِ الَّتي هي أصلُ الاهتداءِ إلى تَصديقِ ما أخْبَرَهم به القرآنُ مِن البَعثِ والجزاءِ، وإلى الاهتداءِ إلى أنَّ مُنشِئَ النَّشأةِ الأُولى عن عدَمٍ بما فيها مِن عَظيمِ الموجوداتِ كالجِبالِ والسَّماءِ؛ لا يُستبعَدُ في جانبِ قُدرتِه إعادةُ إنشاءِ الإنسانِ بعْدَ فَنائِه عن عدَمٍ، وهو دُونَ تلك الموجوداتِ العظيمةِ الأحجامِ؛ فكان إعراضُهم عن النَّظرِ مَجْلبةً لِما يُخَشِّمُهم مِن الشَّقاوةِ.

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) أي: أفلَا يَنظُرُ النَّاسُ إلى الإبِلِ مُتفكِّرِينَ في كيفيَّةِ خَلْقِها على هذا النَّحوِ العَجيبِ البَديعِ. موسوعة التفسير

والهَمزةُ في أَفَلَا يَنْظُرُونَ ... للاستفهامِ التَّوبيخيِّ الإنكاريِّ، إنكارًا عليهم إهمالَ النَّظَرِ في الحالِ إلى دَقائقِ صُنعِ اللهِ في بَعضِ مَخلوقاتِه.

قال السعدي: يقول تعالى حثًا للذين لا يصدقون الرسول ﷺ، ولغيرهم من الناس، أن يتفكروا في مخلوقات الله الدالة على توحيده: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ أي: [ألا] ينظرون إلى خلقها البديع، وكيف سخرها الله للعباد، وذللها لمنافعهم الكثيرة التي يضطرون إليها.

من فكر واعتبر بهذه الآيات العظيمة فإنه يصل إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى.

قال ابن عثيمين: لَمَّا قرَّر الله عز وجل في هذه السورة حديث الغاشية، وهي يوم القيامة، وبيَّن أنَّ الناس ينقسمون إلى قِسمين: وجوهٌ خاشعةٌ عاملةٌ ناصبةٌ تَصْلَى نارًا حاميةً، ووجوهٌ ناعمةٌ لِسَعْيها راضيةٌ، وبيَّن جزاء هؤلاء وهؤلاء، قال: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾، وهذا الاستفهام للتوبيخ؛ أي إنَّ الله يوبِّخ هؤلاء الذين أنكروا ما أخبر الله به عن يوم القيامة وعن الثواب والعقاب، أَنكر عليهم إعراضَهم عن النظر في آيات الله تعالى التي بين أيديهم، وبدأ بالإبل؛ لأنَّ أكثر ما يُلابس الناس في ذلك الوقت الإبل، فهُم يركبونها، ويحلبونها، ويأكلون لحمها، وينتفعون من أوبارها، إلى غير ذلك من المنافع، فقال: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ﴾ وهي الأباعر.

كما قال تعالى: وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ [النحل: 5 - 7] .

وقال سُبحانَه: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ [يس: 71 - 73] .

قال الإمام القرطبي : لما ذكر الله عز وجل أمر أهل الدارين، تعجب الكفار من ذلك، فكذبوا وأنكروا; فذكرهم الله صنعته وقدرته وأنه قادر على كل شيء، كما خلق الحيوانات والسماء والأرض. ثم ذكر الإبل أولا، لأنها كثيرة في العرب، ولم يروا الفيلة، فنبههم جل ثناؤه على عظيم من خلقه; قد ذلله للصغير، يقوده وينيخه وينهضه ويحمل عليه الثقيل من الحمل وهو بارك، فينهض بثقيل حمله، وليس ذلك في شيء من الحيوان غيره. فأراهم عظيما من خلقه، مسخرا لصغير من خلقه; يدلهم بذلك على توحيده وعظيم قدرته.

فخُصَّتِ الإبلُ بالذِّكرِ؛ لأنَّه اجتَمَعَ فيها ما تَفرَّقَ مِن المنافعِ في غَيرِها؛ مِن أكْلِ لَحمِها، وشُربِ لَبنِها، والحمْلِ عليها، والتَّنقُّلِ عليها إلى البلادِ الشَّاسِعةِ، وعَيشِها بأيِّ نَباتٍ أكَلَتْه، وصَبْرِها على العطَشِ، حتَّى إنَّ فيها ما يَرِدُ الماءَ لعَشْرٍ، وطَواعيتِها لِمَن يَقودُها، ونَهضتِها وهي باركةٌ بالأحمالِ الثِّقالِ، وكَثرةِ حَنينِها، وتأثُّرِها بالصَّوتِ الحسَنِ على غِلَظِ أكْبادِها؛ فهي أشرَفُ المركَباتِ وأكثَرُها صُنعًا، ولأنَّها أعجَبُ ما عندَ العرَبِ مِن هذا النَّوعِ. الدرر السنية

وكذلك تخصيص الإبل بالذكر هنا يعود لعدّة أسباب أهمها: أنه توجد في هذا المخلوق من معاني الإعجاز في الخلق ما يبهر العقول ، وقد اكتشف العلم أن في طبيعة خلقها فوائد ومناسبات جمّة ، تلائم طبيعة المكان الذي تتحرك فيه وهو الصحراء ، فمثلاً عندما تلاحظ أذني الجمل تجدهما أذنين صغيرتين مغطّاة بالشعر من كل جانب ، والسبب كما يؤكد العلماء حتى تقيها من الرمال التي تتميز بها الأراضي

الصحراوية التي هي البيئة الأساسية لحركة الإبل . وكذلك عندما تلاحظ منخري الجمل تجدهما ضيقين محاطين بالشعر، وحافتهما لحمية بالشكل الذي يسمح له غلقهما بما يحمي رئتيه من التراب والرمال التي تواجهه في مسيره في الصحراء، وكذلك هذا العنق الطويل الذي يمتاز به هذا الحيوان، ولعل ذلك حتى يتمكن الجمل من الأكل وهو واقف على رجليه، ولا يتجشم عناء البروك بأثقاله وحمله ، الأمر الذي يجعله يعاني من صعوبة البروك والنهوض. ومن أسرار هذا المخلوق هو تحمّله للعطش الشديد في الصحراء، الأمر الذي يؤهله لمواصلة المسير عدّة أيام دون الحاجة للماء، سبحان الله العظيم.

﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ ﴿18﴾

(وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ) أي: أفلا يَنظُرونَ إلى السَّماءِ كذلك كيف رُفِعَت هذا الارتِفاعَ العَظيمَ. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين: وينظرون إلى السماء كيف رفعت بما فيها من النجوم والشمس والقمر وغيرها من الآيات العظيمة التي لم يتبين كثير منها إلا الآن.

قال ابن عثيمين: رُفِعَت هذا الارتفاع العظيم، ومع هذا فليس لها عَمَدٌ، مع أنَّ العادة أنَّ السقوف لا تكون إلا على عَمَدٍ، لكن هذا السقف العظيم المحفوظ قام على غير عمدٍ؛ كما قال تعالى: اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا [الرعد: 2] . وقال سُبحانَه: أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ [ق: 6] .

﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ ﴿19﴾

(وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ) أي: أفلا يَنظُرونَ إلى الجِبالِ كيف أُقيمَت على هيئةٍ باهرةٍ؛ إذ هي مُنتَصِبةٌ جامِدةٌ ثابتةٌ لا تَبرَحُ مَكانَها ولا تَسقُطُ. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين: هذه الجبال العظيمة التي تحمل الصخور والقِطَع المتجاورات المتباينات، الجبال مكوَّنة من أحجارٍ كثيرةٍ وأنواعٍ كثيرةٍ فيها المعادنُ المتنوعة وهي متجاورة، ومع ذلك تجد مثلًا هذا الخطَّ في وسط الصخر تجده يشتمل على معادن لا توجد فيما قَرُب منه من هذا الصخر، ويَعرف هذا أهلُ الجيولوجيا كيف نَصَب الله هذه الجبالَ العظيمةَ، ونصبها جل وعلا بهذا الارتفاع لتكون رواسي في الأرض لئلَّا تميد بالناس، لولا أنَّ الله عز وجل خلق هذه الجبالَ لَمادت الأرضُ بأهلها؛ لأنَّ الأرض في وسط الماء، الماء محيطٌ بها من كلِّ جانب.

قال ابن عثيمين: جعل هذه الجبال رواسي تُمسك الأرضَ كما تُمسك الأطنابُ الخيمةَ، وهي راسية ثابتة على ما يحصل من الأرض من الأعاصير العظيمة التي تهدم البنايات التي بناها الآدميُّون، لكن هذه الجبال لا تتزحزح، راسية ولو جاءت الأعاصير العظيمة، بل إنَّ مِن فوائدها أنها تحجب الأعاصير العظيمة البالغة التي تنطلق من البحار أو من غير البحار لئلَّا تعصف بالناس، وهذا شيءٌ مُشاهَد؛ تجد الذين في سُفوح الجبال وتحتها في الأرض تجده في مأمنٍ من أعاصير الرياح العظيمة التي تأتي من خلف الجبل، فهي

فيها فوائد عظيمة، وهي رواسٍ؛ لو أنَّ الخلق اجتمعوا على أن يضعوا سلسلةً مثل هذه السلسلة من الجبال ما استطاعوا إلى هذا سبيلًا، مهما بلغتْ صناعتُهم وقوَّتُهم وقدرتُهم وطال أَمَدُهم فإنهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثل هذه الجبال.

﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ ﴿20﴾

(وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) أي: أفلا يَنظُرونَ إلى الأرضِ كيف بَسَطَها اللهُ، فجَعَل لها سَطحًا تَستَقِرُّ عليه المخلوقاتُ. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين: كيف سَطَح الله هذه الأرضَ الواسعةَ وجَعَلها سطحًا واسعًا ليتمكن الناسُ من العيش فيه بالزراعة والبناء وغير هذا، فما ظنُّكم لو كانت الأرضُ صَبَبًا غير مُسَطَّحة؛ يعني مثل الجبال يُرقَى لها ويُصعَد؟ لَكانت شاقَّةً ولَمَا استقرَّ الناسُ عليها، لكنَّ الله عز وجل جَعَلها سطحًا ممهَّدًا للخلق.

كما قال تعالى: وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ [الذاريات: 48].

قال ابن عاشور: وبُنِيَت الأفعالُ الأربعةُ خُلِقَتْ رُفِعَتْ نُصِبَتْ سُطِحَتْ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فاعلُه؛ للعِلمِ بفاعِلِ ذلك.

المناسَبةِ بيْنَ هذه الأشياءِ : أنَّ القُرآنَ نَزَل على العَرَبِ، وكانوا يُسافِرونَ كثيرًا، وكانوا يَسيرون على الإبِلِ في المهامِهِ والقِفارِ مُستَوحِشينَ مُنفَرِدينَ عن النَّاسِ، والإنسانُ إذا انفرد أقبَلَ على التَّفَكُّرِ في الأشياءِ؛ لأنَّه ليس معه مَن يُحادِثُه، وليس هناك مَن يَشغَلُ به سَمْعَه وبَصَرَه، فلا بُدَّ مِن أن يجعَلَ دَأْبَه الفِكرَ، فإذا فكَّرَ في تلك الحالِ فأوَّلُ ما يَقَعُ بَصَرُه على الجَمَلِ الَّذي هو راكِبُه؛ فيرى منظرًا عَجيبًا، وإن نظرَ إلى فَوقٍ لم يَرَ غَيرَ السَّماءِ، وإذا نظَرَ يمينًا وشِمالًا لم يَرَ غَيرَ الجبالِ، وإذا نظَرَ إلى تحتٍ لم يَرَ غيرَ الأرضِ؛ فكأنَّه تعالى أمَرَه بالنَّظَرِ وَقتَ الخَلوةِ والانفرادِ؛ حتَّى لا تحمِلَه داعيةُ الكِبْرِ والحَسَدِ على تَرْكِ النَّظَرِ.

حَثٌّ مِن اللهِ عزَّ وجَلَّ إلى النَّظَرِ فيها بعَينِ البَصَرِ وعَينِ البَصيرةِ؛ بعَينِ البَصَرِ الَّذي هو الإدراكُ الحِسِّيُّ، وبعَينِ البصيرةِ الَّتي هي الإدراكُ العَقليُّ؛ حتَّى نَستَدِلَّ بها على ما تدُلُّ عليه مِن آياتِ اللهِ مِن قُدرةٍ وعِلْمٍ، ورحمةٍ وحِكمةٍ وغيرِ ذلك .

فالنَّظَرُ الدَّقيقُ والفِكرُ الدَّارِسُ مِمَّا قد يؤدِّي بصاحِبِه إلى الاستدلالِ على وُجودِ اللهِ تعالى وعلى قُدرتِه، كما نطق قُسُّ بنُ ساعِدةَ في الجاهليَّةِ في خُطبتِه المشهورةِ: «ليلٌ داجٍ ، ونهارٌ ساجٍ ، وسماءٌ ذاتُ أبراجٍ، ونجومٌ تُزهِر، وبحارٌ تَزخَرُ، وجِبالٌ مُرْساةٌ، وأرضٌ مُدْحاةٌ، وأنهارٌ مُجْراةٌ» ؛ فقد ذكَرَ السَّماءَ والجِبالَ والأرضَ. الدرر السنية

يقول : إن في السماء لخبرًا، وإن في الأرض لعبرًا، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون، أرضوا فأقاموا، أم تركوا فناموا؟، ثم يقسم قس بالله قسمًا لا إثم فيه فيقول: إن لله دينًا هو أرضى له، وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه، إنكم لتأتون من الأمر منكرًا".

🡸 وقيل أنه أول من أقر بالبعث من غير علم، وأول من قال: البينة على المدعي واليمين على من أنكر، كما اشتُهِر بوعظه وحكمته فكان يسير في الناس وينذرهم ويحذرهم ويقال أنه كان من المعمرين، لقيه النبي -ρ- قبل بعثته، ولم يدرك الإسلام، وقد وردت بعض الأحاديث عنه أن النبي -ρ- سئل عنه فقال: أنّه يحشر أمّة.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ ﴿21﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال الرازي: لَمَّا بَيَّنَ الدَّلائِلَ على صِحَّةِ التَّوحيدِ والمعادِ، قال لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ، وتذكيرُ الرَّسولِ إنَّما يكونُ بذِكرِ هذه الأدِلَّةِ وأمثالِها، والبَعْثِ على النَّظَرِ فيها، والتَّحذيرِ مِن تَرْكِ تلك، وذلك بَعْثٌ منه تعالى للرَّسولِ على التَّذكيرِ والصَّبرِ على كُلِّ عارِضٍ معه؛ وبيانُ أنَّه إنَّما بُعِثَ لذلك دونَ غَيرِه؛ فلهذا قال

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ) أي: فذَكِّرِ النَّاسَ -يا مُحَمَّدُ- بآياتِ اللهِ تعالى، وعِظْهُم بها؛ فما أرسَلْتُك إليهم إلَّا لتَذكيرِهم. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين: لم يَخْصُصِ اللهُ أحدًا بالتَّذكيرِ، أي: لم يَقُلْ: ذَكِّرْ فُلانًا وفُلانًا، فالتَّذكيرُ عامٌّ؛ لأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم بُعِثَ إلى النَّاسِ كافَّةً، أي: ذَكِّرْ كلَّ أحدٍ في كلِّ حالٍ، وفي كلِّ مكانٍ؛ فذَكَّرَ النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وذَكَّرَ خُلَفاؤُه مِن بَعْدِه؛ الَّذين خَلَفُوه في أُمَّتِه في العِلمِ والعَمَلِ والدَّعوةِ. وقال عزَّ وجلَّ: وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ [الذاريات: 55].

﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ ﴿22﴾

(لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ) أي: لم تُبعَثْ -يا مُحَمَّدُ- مُتسَلِّطًا على النَّاسِ وقاهِرًا لهم؛ فتُكرِهَهم على الإيمانِ باللهِ وطاعتِه. موسوعة التفسير

قال السعدي: ولم تبعث مسيطرًا عليهم، مسلطًا موكلًا بأعمالهم، فإذا قمت بما عليك، فلا عليك بعد ذلك لوم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

قال ابنُ القَيِّم: (قال المفسِّرون: المعنى: أنَّك لم تُرسَلْ مُسَلَّطًا عليهم قاهِرًا لهم جبَّارًا كالملوكِ، بل أنت عبدي ورسولي المبَلِّغُ رِسالاتي؛ فمَن أطاعك فله الجنَّةُ، ومَن عصاك فله النَّارُ).

قال ابن عثيمين: في قَولِه تعالى: لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ أنَّ الدَّاعيَ إلى اللهِ لا يَنبغي أنْ يَحزَنَ إذا لم تُقْبَلْ دعوتُه، فإذا أدَّى ما يجبُ عليه فقد بَرِئَتِ الذِّمَّةُ، والحِسابُ على اللهِ تعالى؛ فقَولُه تعالى: إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ يعني: لكِنْ مَن تولَّى وكَفَرَ -على قولٍ- فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ، فلا تحزَنْ أيُّها الدَّاعي إلى اللهِ إذا رُدَّ قولُك، أو إذا لم يُقْبَلْ لأوَّلِ مرَّةٍ؛ لأنَّك أدَّيتَ ما يجبُ عليك

كما قال تعالى: لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ [البقرة: 272] .

وقال سُبحانَه: إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ [الزمر: 41] .

وقال عزَّ وجلَّ: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ [الشورى: 48] .

﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ ﴿23﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال البقاعي: لَمَّا نفى عنهم تسَلُّطَ الدُّنيا، وكان التَّقديرُ: فمَنْ أقْبَلَ وآمَنَ فإنَّ اللهَ يُنَعِّمُه النَّعيمَ الأكبَرَ؛ قال مُستَدرِكًا قَسيمَهم في صورةِ الاستثناءِ

(إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ) أي: إلَّا مَن أعرَضَ عن الحَقِّ وكَفَر بعدَ تذكيرِه بآياتِ اللهِ تعالى. موسوعة التفسير

قال القرطبي: (إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ استثناءٌ مُنقطِعٌ، أي: لكِنْ مَن تولَّى عن الوَعظِ والتَّذكيرِ).

قال السعدي: أي: لكن من تولى عن الطاعة وكفر بالله.

﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ ﴿24﴾

(فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ) أي: فيُعَذِّبُه اللهُ في الآخِرةِ على كُفْرِه وإعراضِه عذابَ النَّارِ الَّذي لا عذابَ أعظَمُ منه. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى [طه: 127] .

وقال سُبحانَه وتعالى: وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [السجدة: 21].

قال ابن عثيمين: هل هناك عذابٌ أصغر؟ نقول: نعم، فيه عذاب أصغر في الدنيا؛ قد يُبتلى المتولِّي المعرِض بأمراضٍ في بدنه، في عقله، في أهله، في ماله، في مجتمعه، وكلُّ هذا بالنسبة لعذاب النار عذابٌ أصغر، لكن العذاب الأكبر إنما يكون يوم القيامة، ولهذا قال بعدها:

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ ﴿25﴾

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ) أي: إنَّ إلينا مَرجِعَهم ومَصيرَهم بعْدَ مَوتِهم. موسوعة التفسير

كما قال سبحانه وتعالى: إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [المائدة: 105] .

قال ابن عثيمين: أنَّ الرُّجوعَ هو إلى اللهِ تعالى، فمهما فَرَّ الإنسانُ، وطالتْ به حياةٌ فإنَّه راجعٌ إلى اللهِ؛ ولهذا قال تعالى: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ [الانشقاق: 6] ؛ فاستَعِدَّ يا أخي لهذه المُلاقاةِ، وقد قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: ((ما مِنكم مِن أحدٍ إلَّا سيُكَلِّمُه ربُّه ليس بيْنَه وبيْنه تَرْجُمانٌ، فيَنظُرُ أيْمَنَ منه فلا يرى إلَّا ما قَدَّمَ مِن عمَلِه، ويَنظُرُ أشْأَمَ منه -يعني: على اليَسارِ- فلا يرى إلَّا ما قَدَّمَ، وينظُرُ بيْنَ يديه فلا يرَى إلَّا النَّارَ تِلْقاءَ وجْهِه؛ فاتَّقوا النَّارَ ولو بشِقِّ تمرةٍ)) ، والله عزَّ وجَلَّ يومَ القيامةِ يُقَرِّرُ العبدَ بذُنوبِه، يقولُ: فعَلْتَ كذا في يومِ كذا، حتَّى يُقِرَّ ويَعترِفَ، فإذا أقَرَّ واعترفَ قال اللهُ تعالى: ((ستَرْتُها عليك في الدُّنيا، وأنا أغفِرُها لك اليَومَ)) ، وكم مِن ذُنوبٍ سَتَرَها اللهُ عزَّ وجَلَّ! كم مِن ذُنوبٍ اقتَرَفْناها لم يَعلَمْ بها أحدٌ، ولكنَّ اللهَ تعالى عَلِمَ بها! فمَوقِفُنا مِن هذه الذُّنوبِ أنْ نستغفِرَ اللهَ عزَّ وجَلَّ، وأنْ نُكْثِرَ مِن الأعمالِ الصَّالحةِ المكفِّرةِ للسَّيِّئاتِ؛ حتَّى نلقى اللهَ عزَّ وجَلَّ ونحن على ما يُرْضيه سُبحانَه وتعالى.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ ﴿26﴾

(ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ) أي: ثمَّ إنَّ علينا حِسابَهم يومَ القيامةِ على أعمالِهم، وسنُجازيهم بها. موسوعة التفسير

قال تعالى: فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ [الرعد: 40] .

قال القرطبي -رحمه الله-: "إذا بعث العباد من قبورهم إلى الموقف، وقاموا فيه ما شاء الله حفاة عراة، وجاء وقت الحساب الذي يريد الله أن يحاسبهم فيه، أمرَ بالكتب التي كتبها الملائكة الكرام الكاتبون، فمنهم من يؤتى كتابه بيمينه، فأولئك هم السعداء الذين ما إن يعطَوا كتبهم إلا انقلبوا إلى أهلهم مسرورين رافعين أصواتهم، يقول: (هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ)، ومنهم من يؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره، وهم الأشقياء الذين يدعون بالويل والثبور، فعند ذلك يقرأ كلّ فريق كتابه، فالسعداء إلى الجنة، والأشقياء إلى النار".

وقال رسول اللهِ -ρ-: "يُحْشَرُ العبادُ أوِ النَّاسُ عُرَاةً غُرْلاً -أيْ غيرَ مَخْتونِينَ- بُهْماً قالَ: وما بُهْماً؟ قالَ: "ليس مَعَهُمْ شَيْءٌ، ثم يُنادِيهم بِصوتٍ يسمعُهُ مَنْ بَعُدَ كما يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ: أنَا المَلِكُ، أنَا الدَّيَّانُ، لا يَنْبَغِي لأحدٍ مِنْ أهلِ الجَنَّةِ أنْ يدخُلَ الجَنَّةَ، ولا يَنْبَغِي لأحَدٍ مِنْ أهلِ النَّارِ أنْ يَدْخُلَ النارَ وعِندَهُ مَظْلَمَةٌ؛ حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ، حتَّى اللَّطْمَةُ، قالَ: قلْنا: كيفَ ذَا وإنَّما نأتِي اللهَ غُرْلاً بُهْماً؟! قالَ:" بالحسَنَاتِ والسَّيِّئاتِ" قالَ: وتَلا رَسُولُ اللهِ -ρ-: (الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)[غافر: 17] (أحمدُ).

إنَّه لا يَنْجُو مِنْ خَطَرِ الحساب إلاّ مَنْ حَاسَبَ نَفْسَه في الدنيا، وَوَزَنَ بميزانِ الشَّرْعِ أعمالَهُ وأقْوَالَهُ، فاحْسُبُوا لذلكَ اليومِ حِسَابَهُ، وأَعِدُّوا لَهُ عُدَّتَهُ، واحذَرُوا أنْ تَبْخَسُوا الناسَ أشياءَهم، أوْ أَنْ تأكُلُوا أموالهَم، أوْ تَلوُكُوا أعرَاضَهُم، قال عمر بن الخطاب -τ-: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا؛ فإن أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم".

يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَتَذَكَّرَ عَلَى الدَّوَامِ رُجُوعَهُ إِلَى اللَّهِ -تَعَالَى-؛ فَهُوَ وُجِدَ فِي الدُّنْيَا لِيَنْتَقِلَ مِنْهَا لَا لِيَبْقَى فِيهَا (إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى)[الْعَلَقِ: 8]، وَفِي حَالِ الْمُصِيبَةِ يُعْلِنُ الْمُؤْمِنُ ذَلِكُمُ الرُّجُوعَ إِلَى اللَّهِ -تَعَالَى-؛ لِيُخَفِّفَ مُصَابَهُ وَيَرْجُوَ الثَّوَابَ مِنَ اللَّهِ -تَعَالَى- (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)[الْبَقَرَةِ: 156].

هَذَا؛ وَمَنْ كَانَ رُجُوعُهُ إِلَى رَبِّهِ -سُبْحَانَهُ- حَتْمًا لَا بُدَّ مِنْهُ، وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَذَكَّرَ ذَلِكَ الرُّجُوعَ كُلَّ حِينٍ، وَمَنْ كَانَ رُجُوعُهُ إِلَى رَبِّهِ -سُبْحَانَهُ- حَاضِرًا فِي ذِهْنِهِ عَلَى الدَّوَامِ؛ قَوِيَ إِيمَانُهُ وَيَقِينُهُ، وَوَاجَهَ الْمَصَاعِبَ بِثَبَاتٍ وَعَزْمٍ، وَأَخَذَ الدِّينَ بِقُوَّةٍ، وَلَمْ يَأْسَ عَلَى شَيْءٍ فَاتَهُ، وَلَمْ يَجْزَعْ مِمَّا أَصَابَهُ، وَعَاشَ فِي النَّاسِ عَزِيزًا، وَمَاتَ حَمِيدًا، وَكَانَ بَعْدَ مَوْتِهِ سَعِيدًا؛ فَلَا يُسْتَذَلُّ بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا؛ إِذِ الرَّغْبَةُ فِي الدُّنْيَا هِيَ مَوْرِدُ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَى تَمَسُّكِهِ بِدِينِهِ؛ وَعَلَى زُهْدِهِ فِيمَا فِي أَيْدِيهِمْ، فَالنَّاسُ يُحِبُّونَ مَنْ يَرْغَبُ عَنْ دُنْيَاهُمْ، وَيَكْرَهُونَ مَنْ يُنَافِسُهُمْ فِيهَا. وَسَعِدَ فِي آخِرَتِهِ لِأَنَّهُ يَجِدُ عُقْبَى إِيمَانِهِ وَعَمَلِهِ الصَّالِحِ؛ فَقَدْ أَمْضَى

دُنْيَاهُ يَسْتَعِدُّ لِرُجُوعِهِ إِلَى رَبِّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَلَنْ يَخِيبَ عَبْدٌ عَاشَ دُنْيَاهُ كُلَّهَا لِأَجْلِ اللَّهِ -تَعَالَى- وَالدَّارِ الْآخِرَةِ.

🗀وَمَنْ كَانَ رُجُوعُهُ إِلَى رَبِّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- حَاضِرًا فِي قَلْبِهِ عَلَى الدَّوَامِ نُصِبَتْ أَرْكَانُهُ فِي الصَّالِحَاتِ، وَسَحَّتْ يَدُهُ بِالْإِنْفَاقِ، وَلَازَمَ الصَّلَاةَ وَالْقُرْآنَ، وَنَافَسَ فِي الطَّاعَاتِ، وَسَابَقَ إِلَى الْخَيْرَاتِ. يَبْنِي دَارَهُ الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا، وَيَكْتَفِي مِنْ دُنْيَاهُ بِمَا يُبَلِّغُهُ آخِرَتَهُ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّهُ لَا رُجُوعَ لِلْعَمَلِ بَعْدَ مَوْتِهِ، فَالْفُرْصَةُ وَاحِدَةٌ، وَالْخَسَارَةُ فِيهَا فَادِحَةٌ (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)[الْمُؤْمِنُونَ: 99- 100].